"أبقى الباب مفتوحًا" هو عنوان رواية فؤاد قنديل الصادرة عن دار الهلال، وربما يبدو هذا العنوان، بالنسبة للمتلقى، غير دال أو موح للوهلة الأولى. ولكن المرء إذا ما تمعن فى هذا العنوان البسيط (الذى كثيرًا ما نستخدمه فى لغة الحياة اليومية)، لأدرك أن هذا العنوان فى دلالته غير المباشرة يوحى بأن الباب يجب أن يبقى مفتوحًا؛ لأن من خرج منه سوف يعود! هذا المعنى سوف يتأكد لدى القارئ كلما واصل قراءة العمل حتى منتهاه. والحقيقة أن هذا العنوان ليس سوى عبارة عابرة جاءت على لسان الشخصية الرئيسية فى هذا العمل: عبارة قالها نادر لعروسه التى لم يفلح فى الدخول بها، فبات فى صقيع الليل خارج عتبة الدار ثلاث ليال بناء على تعليمات أحد شيوخ البلدة العاملين بالسحر، والذى اقترح هذه الوصفة السحرية لفك هذه العقدة الجنسية التى لا مبرر لها. فما كان من نادر إلا أن طلب من عروسه أن تبقى الباب مفتوحًا لعل حاله تنفرج، فيهرب من صقيع الليل إلى دفء الفراش والجماع. عبارة عابرة قالها نادر فى سياق حدث غير معقول يرد فى بداية صفحات الرواية، ولكنها تبقى بمثابة نقطة تحول مركزية تترتب عليها أحداث جسام لم تكن فى الحسبان:

ابقى الباب مفتوحا:

ألعاب الحياة والقدر!

د.سعيد توفيق

فبينما يغط نادر فى نوم عميق تزمجر السماء وتبرق وترعد، ثم تسيل وتفيض، فيندفع السيل المنحدر من الجبل على البلدة التى ترقد تحت سفحه، حاملاً نادر بالمرتبة الاسفنجية التى ينام عليها وبالبطانية التى يلتحف بها، والمرسوم عليها نمر يكشر عن أنيابه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا إزاء هذا السيل العارم الذى أفضى بالمرتبة إلى النهر الواسع، ومنه إلى ما شاء الله. ومن هنا تبدأ الحكاية أو سلسلة الحكايات التى لا تنتهى إلا بالعودة إلى الدار التى طلب نادر من زوجه سهاد أن تُبقى بابها مفتوحة.

يجرف النهر نادر إلى بلاد بعيدة غريبة مليئة بالسحر والأساطير، لا نعرف كنهها، ولكن يتولد فى أنفسنا شعور بأنها بلاد أفريقية واقعة عند منابع النهر العظيم، فى زمن لا نعرف وقته. تقع فى هواه وتحبه بإخلاص فتاة من تلك البلدة متعطشة لحب حقيقى، فى نفس الوقت الذى تقع فى هواه ابنة عمها سلطانة البلاد التى تريد أن تتخذه زوجًا لها وأن يشاركها فى حكم البلاد. ورغم هذا العرض المغرى، فإنه يتوق للعودة إلى موطنه: إلى زوجته وإلى داره الذى ترك بابه مفتوحًا، ولكنه لا يجد سبيلاً للخلاص من هذه الورطة سوى تلك الفتاة التى أحبته بجنون، وساعدته على الهروب من البلدة بصحبتها؛ إذ كانت على استعداد لأن تصاحبه أيان ذهب. ولكنه فقدها فى النهر حينما زمجر مرةً أخرى أثناء عودته بصحبتها إلى دياره.

كل هذا لا يهم! لا يهم فى الرواية الحكاية أو الحدوتة، وإنما ما يهم فى المقام الأول أسلوب الحكى الذى يخلق الرواية. وأنا لا أعنى بأسلوب الحكى هنا لغة الأديب فحسب؛ لأن تلك اللغة مهما كانت أهميتها تظل أحد أساليب الحكى التى تميز الروائى. ولا شك أن لغة فؤاد قنديل لغة موحية قادرة على الوصف والتشخيص، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ على الفور من خلال كثير من المقاطع الموحية فى الرواية، كما نجد ذلك على سبيل المثال حينما يصور نشأة السيل الذى أخذ نادر إلى النهر:

"اشتاقت السماء إلى البحر فاسقطت أشواقها ماء فوق الجبال، وأوحت إليها أن تركب النهر نحو البحر، أخفت السماء عشقها فى الظلمة. لم تكن تعلم أن أى شىء على الأرض يهفو للبحر ويمضى إليه، حتى الأمنيات الجميلة. ومن لا يسلم نفسه للبحر تقذفه الأقدار إليه." (ص ٨)

غير أن ما يميز أسلوب الحكى هنا- بخلاف اللغة- إنما هو الخيال الذى لا يتوقف أبدًا: فنحن هنا لسنا بإزاء حكاية واحدة، وإنما بإزاء سلسلة من الحكايات الخيالية التى تسلم كل منها إلى الأخرى. يذكرنى هذا بأسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" حيث تسلمنا الحكايات إلى بعضها دون توقف أو انقطاع. وهذه الرواية بوجه خاص لا تشبه أسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" فقط من حيث بناء السرد، وإنما أيضًا من حيث روح مضمونه: إذ أن الموضوعات والشخوص المصورة فى هذه الرواية يغلب عليها الطابع الأسطورى السحرى، باعتبارها موضوعات وشخوص أتت من عالم خفى خيالى: بلاد بعيدة لا نعرف كنهها تحديدًا، ولكننا نتخيلها كما لو كانت بلادًا أفريقية تقع عند منابع النيل فى زمان غير زماننا هذا. لذلك نجد الناس هنا مختلفين فى هيئتهم ولونهم وأسمائهم ولغتهم (التى دقق قنديل فى تصويرها)، بل فى ثقافتهم وأسلوب حياتهم الذى يقوم على السحر والغيب. ولذلك فإنه عندما يختبئ بتلك البلاد بمعونة تلك الفتاة التى أوته وأحبته، يدرك سحرتها وكهنتها أن هناك غريبًا بينهم؛ ولهذا فإن مينوت كبير السحرة الذى يقرأ الأسرار أمر بما يلى:

".. أمر بجمع عشرة من أغصان شجر السرو وقدر به ماء بحر، وتشعل تحته النار وفيه توضع ضفدعتان وسبعة من أنياب تمساح شاب لم يبلغ بعد، وسبع ريشات من ببغاء أحمر وبيضة نسر أفريقى وبعض الأعشاب ولسان أفعى حية. بعد الغلى لمدة ساعة ارتفعت أنياب التمساح وهبطت ريشات الببغاء، وقال مينوت: غريب فى البلاد قادم من مناطق بعيدة، لا يظهر القمر ولا الشمس عندنا وعندهم فى وقت واحد." (ص ٥٤)

والمدهش هنا أن قنديل يصور لنا الأحداث المتعاقبة المتخيلة اللاواقعية والخرافية الأسطورية كما لو كانت أحداثًا واقعية جدية؛ لأنه يمزج دائمًا عناصر واقعية بنسيج عمله الخيالى بشكل لا يخلو فى مواضع كثيرة من السخرية والدعابة، بحيث يبدو لنا عمله فى النهاية نوعًا من الفانتازيا الفذة. وهذا المزج بين الواقعى والمتخيل، وبين الجاد والساخر، يتبدى لنا فى مواضع كثيرة، خاصة تلك التى يسيطر عليها نوع من الإسقاط السياسى، كما فى الحوارات العديدة التى تدور بينه وسلطانة البلاد التى تحاول إغرائه بالبقاء، ليس فقط بأسلحتها الأنثوية، وإنما بأن يشاركها الحكم سلطانًا على البلاد.

وفضلاً عن ذلك، فإن من أهم ما يميز أسلوب الحكى هنا هو التشويق فى سرد الحكايات التى لا تنقطع. ولا شك أن التشويق- فى حد ذاته- يُعتبر قيمة جمالية كما لاحظ ذلك وبينه بالتفصيل الفيلسوف الكبير رومان إنجاردن (الذى يعد من أهم الفلاسفة فى علم الجمال المعاصر). وربما تتبدى أهمية التشويق فى الأعمال السينمائية أكثر من غيرها، إلا أن هذه القيمة الجمالية تظل أيضًا أحد معايير جماليات الحكى الروائى. والتشويق هنا يعنى ببساطة أن أسلوب الحكى يجعلنا دائمًا فى شوق لمعرفة ما ستفضى إليه الأحداث والحكايات المتلاحقة. ولقد نسج قنديل بعناية فائقة كل حكاية من حكاياته التى تسلمنا الواحدة منها إلى الأخرى دون أن نشعر بوجود انقطاع أو انتقال فجائى غير مبرر فى أى موضع من المواضع.

شىء واحد يبدو وكأنه قد انبثق فجأة دون

تسلمنا بعضها إلى بعض: إنه نقطة البدء: ذلك السيل العارم الذى يبدو موضوعًا واقعيًا ممكنًا، والذى تنشأ عنه كل تلك الأحداث المتخيلة اللاواقعية؛ ولكن فى هذا الحدث الفجائى على وجه التحديد تكمن الرؤية المهيمنة على الرواية والموجهة لها: إنها فكرة القدر الذى يهيمن على حياتنا ووجودنا، وكأن حياة كل منا فى مجملها إنما هى أشبه برحلة طويلة تترتب سائر أحداثها على لحظة قدرية لم نختزها ولم نتوقعها، فنبدو وكأننا نسير فى حياتنا مأخوذين ومدفوعين بما أرادته الأقدار لنا. هذه الرؤية المهيمنة على العمل متناثرة فى ثناياه صراحة حينًا، وتلميحًا حينًا آخر. فمنذ البدء، حينما جرفه السيل إلى النهر، واندفع به الماء إلى حيث لا يدرى، أدرك معنى القدر الذى يوجه رحلتنا ومسارنا فى الحياة:

"كنت تحب السفر والترحال. هذا هو حبك قد حط بين يديك، وحملك حملاً، وأطلقك دون أجنحة، وبعد أن كنت سادرًا فى أعماق النوم، أنت الآن بلا أجنحة تسابق الريح، وكان خادم الخاتم هو الماء الذى يطير بك بسرعة أسطورية إلى حيث لا تعلم. فكر كما تشاء، لكنك أبدًا لن تستطيع أن تقبض على النهاية. حدق فى الأفق كما تشاء، واستسلم لقدرك لأنك لا تملك القدرة على الإمساك بمقود المياه، ولا تملك أن تحيل الإقدام إدبارًا. أنت الآن لا ترى بعيونك وإنما بعيون النهر الذى يواصل اقتراف جريمة تعاطى الانحدار نحو الهاوية" (ص ١٢)

وحتى عندما يمضى نادر فى رحلته التى رسم القدر مسارها، ويصبح حكم البلاد التى بلغها طوع يديه بعد أن كان أقرب إلى الموت غرقًا فى النهر، تظل فكرة القدر حاضرة تلح على ذهنه؛ ولهذا نراه: "يتساءل بينه وبين نفسه عن السر فى أن شخصًا يمكن أن ينتقل من الموت إلى المجد، أو من الضياع إلى الملك" (ص ٧٦)

وبذلك يمكن القول إن فكرة القدر المغلفة بنزعة إيمانية عميقة مستترة هى ما يسود هذا العمل، وإن كان بشكل خفى إيحائى، وهذا هو ما يضفى عليه كثافته وعمقه الوجودى.

الكتاب: ابقى الباب مفتوحاً
المؤلف: فؤاد قنديل

ألعاب الحياة والقدر!

د.سعيد توفيق

فبينما يغط نادر فى نوم عميق تزمجر السماء وتبرق وترعد، ثم تسيل وتفيض، فيندفع السيل المنحدر من الجبل على البلدة التى ترقد تحت سفحه، حاملاً نادر بالمرتبة الاسفنجية التى ينام عليها وبالبطانية التى يلتحف بها، والمرسوم عليها نمر يكشر عن أنيابه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا إزاء هذا السيل العارم الذى أفضى بالمرتبة إلى النهر الواسع، ومنه إلى ما شاء الله. ومن هنا تبدأ الحكاية أو سلسلة الحكايات التى لا تنتهى إلا بالعودة إلى الدار التى طلب نادر من زوجه سهاد أن تُبقى بابها مفتوحة.

يجرف النهر نادر إلى بلاد بعيدة غريبة مليئة بالسحر والأساطير، لا نعرف كنهها، ولكن يتولد فى أنفسنا شعور بأنها بلاد أفريقية واقعة عند منابع النهر العظيم، فى زمن لا نعرف وقته. تقع فى هواه وتحبه بإخلاص فتاة من تلك البلدة متعطشة لحب حقيقى، فى نفس الوقت الذى تقع فى هواه ابنة عمها سلطانة البلاد التى تريد أن تتخذه زوجًا لها وأن يشاركها فى حكم البلاد. ورغم هذا العرض المغرى، فإنه يتوق للعودة إلى موطنه: إلى زوجته وإلى داره الذى ترك بابه مفتوحًا، ولكنه لا يجد سبيلاً للخلاص من هذه الورطة سوى تلك الفتاة التى أحبته بجنون، وساعدته على الهروب من البلدة بصحبتها؛ إذ كانت على استعداد لأن تصاحبه أيان ذهب. ولكنه فقدها فى النهر حينما زمجر مرةً أخرى أثناء عودته بصحبتها إلى داره.

كل هذا لا يهم! لا يهم فى الرواية الحكاية أو الحدوتة، وإنما ما يهم فى المقام الأول أسلوب الحكى الذى يخلق الرواية. وأنا لا أعنى بأسلوب الحكى هنا لغة الأديب فحسب؛ لأن تلك اللغة مهما كانت أهميتها تظل أحد أساليب الحكى التى تميز الروائى. ولا شك أن لغة فؤاد قنديل لغة موحية قادرة على الوصف والتشخيص، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ على الفور من خلال كثير من المقاطع الموحية فى الرواية، كما نجد ذلك على سبيل المثال حينما يصور نشأة السيل الذى أخذ نادر إلى النهر:

"اشتاقت السماء إلى البحر فأسقطت أشواقها ماء فوق الجبال، وأوحت إليها أن تركب النهر نحو البحر، أخفت السماء عشقها فى الظلمة.. لم تكن تعلم أن أى شىء على الأرض يهفو للبحر ويمضى إليه، حتى الأمنيات الجميلة.. ومن لا يسلم نفسه للبحر تقذفه الأقدار إليه.." (ص. ٨).

غير أن ما يميز أسلوب الحكى هنا- بخلاف اللغة- إنما هو الخيال الذى لا يتوقف أبدًا: فنحن هنا لسنا بإزاء حكاية واحدة، وإنما بإزاء سلسلة من الحكايات الخيالية التى تسلم كل منها إلى الأخرى. يذكرنى هذا بأسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" حيث تسلمنا الحكايات إلى بعضها دون توقف أو انقطاع. وهذه الرواية بوجه خاص لا تشبه أسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" فقط من حيث بناء السرد، وإنما أيضًا من حيث روح مضمونه: إذ أن الموضوعات والشخوص المصورة فى هذه الرواية يغلب عليها الطابع الأسطورى السحرى، باعتبارها موضوعات وشخوص أتت من عالم خفى خيالى.. بلاد بعيدة لا نعرف كنهها تحديدًا، ولكننا نتخيلها كما لو كانت بلادًا أفريقية تقع عند منابع النيل فى زمان غير زماننا هذا. لذلك نجد الناس هنا مختلفين فى هيئتهم ولونهم وأسمائهم ولغتهم (التى دقق قنديل فى تصويرها)، بل فى ثقافتهم وأسلوب حياتهم الذى يقوم على السحر والغيب. ولذلك فإنه عندما يختبئ بتلك البلاد بمعونة تلك الفتاة التى آوته وأحبته، يدرك سحرتها وكهنتها أن هناك غريبًا بينهم؛ ولهذا فإن مينوت كبير السحرة الذى يقرأ الأسرار أمر بما يلى:

".. أمر بجمع عشرة من أغصان شجر السرو وقدر به ماء بحر، وتشعل تحته النار وفيه توضع ضفدعتان وسبعة من أنياب تمساح شاب لم يبلغ بعد، وسبع ريشات من ببغاء أحمر وبيضة نسر أفريقى وبعض الأعشاب ولسان أفعى حية.. بعد الغلى لمدة ساعة ارتفعت أنياب التمساح وهبطت ريشات الببغاء، وقال مينوت: غريب فى البلاد قادم من مناطق بعيدة، لا يظهر القمر ولا الشمس عندنا وعندهم فى وقت واحد.." (ص.٥٤).

والمدهش هنا أن قنديل يصور لنا الأحداث المتعاقبة المتخيلة اللاواقعية والخرافية الأسطورية كما لو كانت أحداثًا واقعية جدية؛ لأنه يمزج دائمًا عناصر واقعية بنسيج عمله الخيالى بشكل لا يخلو فى مواضع كثيرة من السخرية والدعابة، بحيث يبدو لنا عمله فى النهاية نوعًا من الفانتازيا المتقنة. وهذا المزج بين الواقعى والمتخيل، وبين الجاد والساخر، يتبدى لنا فى مواضع كثيرة، خاصة تلك التى يسيطر عليها نوع من الإسقاط السياسى، كما فى الحوارات العديدة التى تدور بينه وسلطانة البلاد التى تحاول إغرائه بالبقاء، ليس فقط بأسلحتها الأنثوية، وإنما بأن يشاركها الحكم سلطانًا على البلاد.

وفضلاً عن ذلك، فإن من أهم ما يميز أسلوب الحكى هنا هو التشويق فى سرد الحكايات التى لا تنقطع. ولا شك أن التشويق- فى حد ذاته- يُعتَبر قيمة جمالية كما لاحظ ذلك وبينه بالتفصيل الفيلسوف الكبير رومان إنجاردن (الذى يعد من أهم الفلاسفة فى علم الجمال المعاصر). وربما تتبدى أهمية التشويق فى الأعمال السينمائية أكثر من غيرها، إلا أن هذه القيمة الجمالية تظل أيضًا أحد معايير جماليات الحكى الروائى. والتشويق هنا يعنى ببساطة أن أسلوب الحكى يجعلنا دائمًا فى شوق لمعرفة ما ستفضى إليه الأحداث والحكايات المتلاحقة. ولقد نسج قنديل بعناية فائقة كل حكاية من حكاياته التى تسلمنا الواحدة منها إلى الأخرى دون أن نشعر بوجود انقطاع أو انتقال فجائى غير مبرر فى أى موضع من المواضع.

شىء واحد يبدو وكأنه قد انبثق فجأة دون تبرير، وعليه قامت سائر أحداث الرواية التى

فؤاد قنديل

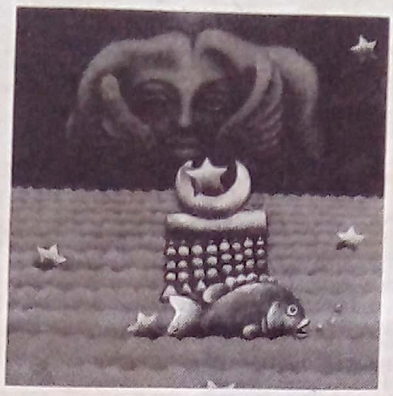

أبقى الباب مفتوحًا

تسلمنا بعضها إلى بعض.. إنه نقطة البدء.. ذلك السيل العارم الذى يبدو موضوعًا واقعيًا ممكنًا، والذى تنشأ عنه كل تلك الأحداث المتخيلة اللاواقعية! ولكن فى هذا الحدث الفجائى على وجه التحديد تكمن الرؤية المهيمنة على الرواية والموجهة لها! إنها فكرة القدر الذى يهيمن على حياتنا ووجودنا، وكأن حياة كل منا فى مجملها إنما هى أشبه برحلة طويلة تترتب سائر أحداثها على لحظة قدرية لم نخترها ولم نتوقعها، فنبدو وكأننا نسير فى حياتنا مأخوذين ومدفوعين بما أرادته الأقدار لنا. هذه الرؤية المهيمنة على العمل متناثرة فى ثناياه صراحة حينًا، وتلميحًا حينًا آخر. فمنذ البدء، حينما جرفه السيل إلى النهر، واندفع به الماء إلى حيث لا يدرى، أدرك معنى القدر الذى يوجه رحلتنا ومسارنا فى الحياة:

"كنت تحب السفر والترحال. هذا هو حبك قد حط بين يديك، وحملك حملاً، وأطلقك دون أجنحة، وبعد أن كنت سادرًا فى أعماق النوم، أنت الآن بلا أجنحة تسابق الريح، وكأن خادم الخاتم هو الماء الذى يطير بك بسرعة أسطورية إلى حيث لا تعلم.. فكر كما تشاء، لكنك أبدًا لن تستطيع أن تقبض على النهاية.. حدق فى الأفق كما تشاء، واستسلم لقدرك لأنك لا تملك القدرة على الإمساك بمقود المياه، ولا تملك أن تحيل الإقدام إدبارًا. أنت الآن لا ترى بعيونك وإنما بعيون النهر الذى يواصل اقتراف جريمة تعاطى الانحدار نحو الهاوية" (ص. ١٣).

وحتى عندما يمضى نادر فى رحلته التى رسم القدر مسارها، ويصبح حكم البلاد التى بلغها طوع يديه بعد أن كان أقرب إلى الموت غرقًا فى النهر، تظل فكرة القدر حاضرة تلح على ذهنه؛ ولهذا نراه: "يتساءل بينه وبين نفسه عن السر فى أن شخصًا يمكن أن ينتقل من الموت إلى المجد، أو من الضياع إلى المُلك.." (ص. ٧٦).

وبذلك يمكن القول إن فكرة القدر المغلفة بنزعة إيمانية عميقة مستترة هى ما يسود هذا العمل، وإن كان بشكل خفى إيحائى، وهذا هو ما يضفى عليه كثافته وعمقه الوجودى.

الكتاب: ابقى الباب مفتوحاً
المؤلف : فؤاد قنديل
الناشر: الهلال